تحولات الدولة والمجتمع بعد الربيع العربي

# الحرب على السنة
# هل تغير الربيع العربي؟

د. رفيق حبيب

نوفمبر ٢٠١٤

التحولات السريعة في المنطقة العربية والإسلامية، تحدث تغييرات واسعة في البيئة الاجتماعية والسياسية، تلك التغييرات تراكم واقعا، يمكن أن يكون له تأثير كبير على مسار الربيع العربي، بل ويمكن أن يعطي للربيع العربي أبعادا تاريخية مختلفة.

فما يحدث في سوريا والعراق واليمن على وجه الخصوص، يمثل أكبر عملية محاصرة تاريخية ضد السنة العرب، ولصالح الشيعة والمشروع الشيعي الطائفي. حتى أن دول الخليج خاصة السعودية، باتت تشارك عمليا في محاصرة دور ووجود السنة العرب.

رغم أن الصراع الإقليمي بين السعودية وإيران، قائم أساسا على محاولة كل طرف أن يكون زعيما للطائفة التي يمثلها، إلا أن السعودية دخلت في معارك شاملة مع الربيع العربي، وكل الحركات الإسلامية المعتدلة، بجانب حربها على الحركات المسلحة، حتى باتت تحارب كل ما هو سني.

إذا كان لكل مكون في الأمة الإسلامية، مشروع يظهر من داخله، فإن المشروع الشيعي يحظى بظرف تاريخي يسمح له بالتمدد، بصورة لا تتناسب مع الوجود الشيعي داخل الأمة الإسلامية، في حين أن كل المشاريع التي تخرج من المكون السني، تحارب على المستوى الإقليمي والدولي.

الحرب على كل الحركات الإسلامية، جعلت كل المشاريع النشطة وكل الحركات الفاعلة داخل المكون السني مستهدفة، حتى باتت الحركة الإسلامية السنية، وكأنها هي المستهدفة بكل حروب المنطقة، وباتت كل التحالفات الإقليمية والدولية، وكأنها تستهدف السنة العرب.

في كل موجات الثورة المضادة، في مصر وتونس وليبيا، استهدفت أساسا الحركة السياسية الإسلامية، بكل مشاريعها وأطروحاتها. واستهدفت الثورة المضادة، مشاريع الاعتدال الإسلامي، قبل أن تستهدف المشاريع المتطرفة.

كل فعل نشط، وكل مشروع سياسي، بل وكل مشروع إسلامي حضاري، يخرج من داخل المكون السني للأمة يستهدف، وكأن مشاريع السنة العرب، تمثل خطرا على كل المنظومة الحاكمة في الإقليم، وكذلك على المصالح الغربية في المنطقة.

استهدفت تركيا عدة مرات، وكذلك تستهدف باكستان وأفغانستان، وفي كل الأحوال، فإن مشاريع السنة السياسية تستهدف، فليس السنة العرب هم المستهدفون فقط، بل وكل السنة أيضا، وإن كان استهداف السنة العرب، يحظى بالأولوية في المعارك الدائرة.

ما يستهدف في الحرب الدائرة في المنطقة العربية والإسلامية، هو كل مشروع إسلامي يخرج من المكون السني للأمة الإسلامية، فكل نشاط أو حركة أو تنظيم أو حزب أو كيان، يحمل مشروعا للتغيير داخل الإطار السني مستهدف.

**السنة وليس الشيعة**

يمثل السنة الأغلبية الكاسحة داخل الأمة الإسلامية، واستهداف حركاتهم ومشاريعهم، يعني أن كل مشروع يخرج من داخل المكون السني، يمكن أن يمثل تحولا تاريخيا داخل الأمة الإسلامية، في حين أن مشاريع الشيعة تخصهم أكثر مما تخص كل الأمة.

من الواضح أن إيران رغم أنها قدمت مشروعا إسلاميا، إلا أنها حصرت حركتها في إطار مصالح الطائفة والقومية، مما جعل المشروع الإيراني طائفيا، أكثر من كونه إسلاميا. واهتمام إيران بدورها الإقليمي، في مواجهة الغرب والدول الإقليمية الأخرى، جعلها توظف مشروعها لصالح تمدد دورها.

لم يعد المشروع الشيعي، يحمل أجندة ثورية تعمل من أجل تحرير الأمة الإسلامية، خاصة عندما وصلت الثورة إلى سوريا، وأصبحت إيران من القوى المهمة في مخططات الثورة المضادة. ومع استغلال إيران لحالة الصراع في المنطقة، أصبحت عاملا مهما في توسيع الثورات المضادة.

لأن المشروع الشيعي أصبح يصب في صالح إيران، ولكنه لا يمثل عاملا قادرا على إحداث تغيير في المنطقة، لذا تغير موقف الغرب من المشروع الإيراني، وحتى مواقف دول الخليج ومنها السعودية تغيرت أيضا. فالمشروع الشيعي والتمدد الإيراني، يأتي على حساب الربيع العربي.

فتح المجال أمام الحركات الشيعية، خاصة الحركات المسلحة، ومحاربة الحركات السنية المعتدلة قبل المسلحة، أظهر كيف تقيم الدول الغربية وحلفائها الوضع في المنطقة العربية والإسلامية، حيث يتضح أن تحرك الحركات المسلحة الشيعية يخدم مصالح الغرب ودول الخليج، بجانب أنه يخدم مصالح إيران.

ويبدو أن الأولوية لم تعد للصراع بين السعودية وإيران، على الأقل لحين الانتهاء من الحرب على الربيع العربي، والحرب على الحركات السياسية الإسلامية المعتدلة، والحرب أيضا على الحركات السنية المسلحة، رغم أن المواجهة بين السعودية وإيران لم تتوقف، ورغم تزايد خسائر السعودية أمام إيران.

بالنسبة لإيران، يبدو أنها ترى أن أي مشروع سني سوف يقلص من حضورها ودورها الإقليمي، مما جعل إيران تستهدف المشاريع السنية، مثلها في ذلك مثل النظم المستبدة والقوى الغربية، والتي لا تريد أيضا أي تغيير أو إصلاح في المنطقة العربية والإسلامية.

مع توالي التفاعلات في المنطقة، أصبح الربيع العربي مرتبطا بالسنة، كما أصبحت الحركات السياسية الإسلامية المعتدلة، مرتبطة بالربيع العربي، وهي تمثل جزءا نشطا داخل المكون السني للأمة، مما جعل الربيع العربي يبدو سنيا وإسلاميا.

إذا كان الربيع العربي فتح الباب أمام حراك سني وإسلامي، فإن الثورة المضادة وتحالفاتها، جعلت الربيع العربي سنيا وإسلاميا، لأن الثورة المضادة عندما استهدفت الحرية والديمقراطية، استهدفت أيضا كل الحركات الإسلامية السنية.

الحركية السنية الإسلامية، خاصة العربية، مثلت مدخلا لبناء مشروع جديد، يغير المنطقة العربية والإسلامية، مما جعلها مستهدفة من كل القوى التي تريد منع حدوث تغيير في المنطقة، وتريد المحافظة على الأوضاع القائمة.

**ليس كل السنة**

تحالف الاستبداد والتبعية، يستند إلى بعض مكونات السنة في ترسيخ حكمه، حتى بات للثورة المضادة أذرع سنية. فالصوفية وسلفية الاستكانة والعلمانية تمثل مكونات بين السنة تؤيد الاستبداد، وتتحالف مع قوى الهيمنة الغربية، وأيضا تقف ضد الربيع العربي.

كل المكونات السنية التي تؤيد الاستبداد والثورة المضادة، لا تحمل مشروعا، مما يعني أن الاستبداد والهيمنة الغربية يتحالفان مع كل سنة بلا مشروع للتغيير أو الإصلاح. وهو ما يعني، أن المكون السني الحامل لمشروع التغيير هو المستهدف.

الحركية السنية مستهدفة، بكل أشكالها وعناصرها، وهي مستهدفة من التحالف الحاكم للمنطقة، بكل عناصره. فتحالف الثورة المضادة، يضم الشيعة والصوفية وسلفية الاستكانة والعلمانية والأقليات العلمانية أو غير المسلمة.

والتحالف الحاكم لمنظومة الاستبداد والثورة المضادة، هو تحالف أقليات، أو قل أنه تحالف كل الأقليات. فالسنة ليسوا أقلية، ولا هم طائفة، فهم المكون الرئيس للأمة الإسلامية، وأغلبيتها الكاسحة، وهم أيضا التيار الأساسي في بنية الأمة الإسلامية.

والسنة العرب هم العمود الفقري للسنة، وللأمة الإسلامية، لذا فإن السواد الأعظم في الأمة الإسلامية هم السنة، ومركزهم هم السنة العرب. وكل مشروع يخرج من السواد الأعظم ويعبر عنه، يغير أحوال الأمة كلها، ويعيد تشكيل المنطقة.

وكل مشروع يخرج من السنة العرب، يتمدد عبر المكون السني للأمة، فيغير السنة ويغير الأمة، ويغير المنطقة بالتالي. مما يجعل المشروع السني عامة، والمشروع السني العربي، هو مفتاح تغيير المنطقة، وهو أيضا مفتاح إنهاء منظومة الاستبداد والهيمنة الخارجية.

والناظر إلى تحالف الاستبداد والثورة المضادة، يجد أنه يمثل المنحى الدنيوي، ويشمل كل فرع إسلامي يتكيف مع الاستبداد أو يعادي التغيير أو يدعو للاستكانة. فالخطاب الديني الداعي لقبول الواقع أيا كان، يمثل دعما حقيقيا للاتجاه الدنيوي الذي تتبناه الأنظمة المستبدة.

فالمكون السني للأمة، منقسم بين مكون يقبل الوضع الحالي ويتكيف مع الاستبداد، ومكون حركي فاعل يعمل من أجل تغيير الواقع. وبين خطاب الاستكانة وخطاب التغيير والإصلاح، أنقسم المكون السني للأمة، وأصبح للاستبداد خطاب ديني استسلامي يستند إليه.

واستهداف السنة له أثر تاريخي مهم على المجتمعات، فهو واقعيا استهداف لكل السنة، وليس للسني الحركي فقط، لأنه استهداف لوجود السنة ودورهم وتأثيرهم. فرغم أن جزء من المكون السني يتحالف مع الاستبداد، إلا أن هذا الجزء أيضا يفقد مكانته، ويفقد دوره.

والخطاب الديني المستسلم للاستبداد، لا يبني دورا للسنة، بل يقوض أي دور لهم، مما يؤدي إلى تفكيك بنية المكون السني للأمة. ومع تراجع دور السنة العرب، بسبب الحرب التي تشن عليهم، وتحالف بعضهم مع الاستبداد، يقوض دور السنة في التاريخ الإسلامي.

والحرب التي تشن على السني الحركي، خاصة العربي، تفكك المجتمعات السنية، وتضعف دور السنة، وتضعف دور الدول السنية، مما يعرض كل المكون السني للانهيار والتراجع المستمر، ومع تراجع دور السنة، يتراجع دور الأمة.

**التحول الاجتماعي**

حروب الثورة المضادة، تغير واقع المنطقة وطبيعة المعركة التي تخوضها قوى الاستبداد مع الربيع العربي، فاستهداف السنة عامة والسنة العرب خاصة، جعل مكون رئيس في الأمة مستهدف، بكل ما يحمله من رؤى وأدوار ومشاريع.

تحالف الشيعة مع الصوفية والعلمانيين والأقليات، شكل تحالف النظم المستبدة، وحدد القوى والمكونات التي تمثل سند الاستبداد والهيمنة الخارجية والثورة المضادة، مما جعل للحكم المستبد سنده الاجتماعي.

في مقابل تحالف الثورة المضادة، تشكلت قاعدة الثورة أو الربيع العربي، وتشكلت أيضا قاعدة التحول التاريخي في المنطقة. فأصبح السنة عامة والسنة العرب خاصة، يمثلون قاعدة التحول التاريخي في المنطقة.

ويمثل السنة امتداد ميراث أهل السنة والجماعة بكل موروثه الثقافي والحضاري والفقهي، مما يجعل المكون السني الحامل لموروث أهل السنة والجماعة، يمثل قاعدة التغيير في المنطقة، في حين أن المكون السني الخارج على موروث أهل السنة والجماعة، يمثل قاعدة للاستبداد والثورة المضادة.

كل الحروب التي تشن على المكون السني، تشكل مظلومية السنة، والتي تعد القاعدة الأساسية لبداية تشكل القاعدة السنية النشطة. فكل المكون السني الحامل لموروثه، يتعرض لمظلومية تاريخية شاملة، تبني تماسك وتضامن هذا المكون، وتجعل مصيره واحدا.

الحروب الدائرة، والتي تمتد عبر دول الربيع العربي لغيرها، وتمتد عبر دول إسلامية، تعد سببا مهما في تضامن السنة العرب مع كل السنة، ثم تعد سببا في بروز المسئولية التاريخية للسنة العرب، لحمل مسئولية التغيير والإصلاح.

تشكل نواة السنة العرب المركزية، أي النواة الصلبة، من الحركات السياسية الإسلامية، خاصة جماعة الإخوان المسلمين، يعد إعادة بناء لبنية المكون السني العربي، والتي تمثل أساسا لإعادة بناء بنية المكون السني للأمة.

حروب الثورة المضادة إذن، وعندما تمددت وتوسعت في دعم المشروع الشيعي الطائفي، والحركة الشيعية المسلحة، أصبحت تساهم في تشكيل قاعدة اجتماعية للتغيير والإصلاح داخل الأمة الإسلامية، حيث تتشكل القاعدة الاجتماعية للتغيير من الحركي السني العربي، والحركي السني غير العربي.

التواصل بين الحركي السني العربي وغير العربي، يعد القاعدة الرابطة بين كل السنة، مما يعني أن تشكل قاعدة الحركي السني العربي، ثم قاعدة السني العربي، يجعلها تتمدد عبر السني الحركي غير العربي، لبقية أجزاء المكون السني الفاعلة.

**التحول الثقافي**

داخل الحركية السنية تاريخ متواصل للفكر الإصلاحي بمختلف مدارسه، والذي شكل في النهاية المشروع الوسطي للتغيير والإصلاح، والذي يجعل الوسطية عنوانا لمشروع أمة، وأيضا عنوانا لمشروع السنة من أجل الأمة.

والوسطية الحضارية، بوصفها مشروعا للنهوض الحضاري، تمثل المضمون الثقافي والحضاري المميز للمكون السني، وهي بالطبع تعد اتجاها أساسيا بجانب الاتجاه الآخر القائم على التغيير بالقوة. فالمنهج السلمي والمنهج المسلح، كلاهما يمثل مشاريعا خرجت من المكون السني.

المنهج المسلح قدم نهجا في التغيير يعد ردا عمليا على مظلومية السنة، أما المنهج السلمي فقدم منهجا في التغيير يتجاوز جراح مظلومية السنة، حتى يبني مستقبلا ناهضا. مما يعني أن المشاريع الفكرية والحركية التي تبلورت عبر العقود، أصبحت تمثل مشاريع السنة للتغيير.

يمكن القول: أن المنهج المتشدد المسلح، يعد نهجا للرد على المظلومية التاريخية، وبناء بديل قسرا بالاعتماد على القوة. والمنهج السلمي المعتدل، يعد نهجا للخروج من التردي الحضاري لبناء نهوض حضاري. فالنهضة تحتاج لفكرة تبنيها، والسلاح لا يبني نهضة، وإن كان يرد على القوة المستبدة.

تشكل مدارس مختلفة تحت عنوان الوسطية الإسلامية، أو الحركية الإسلامية، مثل تنوعا وتعددا داخل إطار المشروع السني للتغيير. والتباين داخل إطار المشاريع السنية جزء من التنوع، ولكن الإطار العام للمشروع السني، يبلور الحل السني لحال الأمة الإسلامية.

تشكل مضمون ثقافي، يمثل موروث الحركة الإصلاحية السنية، يعد تجديدا وتطويرا للموروث الثقافي والفقهي لأهل السنة، وهو ما يمثل علامة مهمة في بناء مشروع التغيير. فمشاريع التغيير التي تنبع من موروث الأمة، وتعبر عن السواد الأعظم، تمثل الأدوات التاريخية للتغيير.

**الخلاصة**

داخل معركة الثورة والثورة المضادة، تتشكل معركة أخرى أهم، وهي معركة ضد المكون السني للأمة، وضد كل محاولات التغيير والإصلاح داخل الأمة الإسلامية. والمعركة ضد السنة، تعد جزءا من المعارك التي استهدفت كيان الأمة الإسلامية، وربما تمثل الحلقة الأخيرة فيها.

استكمال المعركة ضد الأمة الإسلامية، جعل الحركي السني العربي هو المستهدف الأول، وجعل كل حركي سني مستهدفا، وأصبح كل المكون السني العربي مستهدفا، وبعده يستهدف كل المكون السني للأمة، مما رتب حلقات الاستهداف ومراحلها وأهدافها.

تمثل المعركة ضد المكون السني للأمة، سببا مهما في تشكل القاعدة الاجتماعية للتغيير، والتي تتمثل في السنة العرب كمركز لها، وكل السنة كقاعدة عامة، مما يشكل قاعدة السواد الأعظم، كقاعدة للتغيير والإصلاح، بوصف أن السنة يمثلون التيار الرئيس للأمة الإسلامية.

مع تشكل القاعدة الاجتماعية للتغيير، تتشكل أيضا قاعدة الاستبداد والتبعية للغرب، ممثلة في المكونات الصوفية والشيعية وسلفية الاستكانة والعلمانية والأقليات، ليصبح الحكم المستبد مستندا على تحالف الأقليات، ضد الأغلبية الرئيسة للأمة الإسلامية، أي المكون السني.

مع تشكل القواعد الاجتماعية للمعركة المصيرية للأمة، تتشكل الأسس الثقافية لطرفي المعركة. فيصبح الخطاب الديني الاستسلامي، خطابا للاستبداد والتبعية، ويصبح الخطاب الديني الفاعل، خطابا للتغيير والإصلاح، وأيضا خطابا للثورة.

المعركة ضد السنة، أو ضد أي مشروع سني، توسع دائرة معارك الربيع العربي، ليصبح الربيع العربي، هو حراك السنة العرب، من أجل إيقاظ دور السنة في حياة الأمة الإسلامية، وبالتالي استعادة دور الأمة الإسلامية من جديد.

مع تبلور الأساس الاجتماعي للتغيير، وأيضا الأساس الثقافي متمثلا في خطاب الإصلاح السني، الذي يمثل تطويرا للموروث السني، تكتمل أسس مرحلة التغيير التاريخية، بتشكل القاعدة اللازمة لإحداث التغيير والإصلاح.

قد تستمر موجات الربيع العربي في التوالي حتى تحقق النصر، وقد تصبح جزءا من معركة استعادة الدور السني والمشروع السني، وتصبح المظلومية السنية أساسا للتغيير والإصلاح، لتكون حركة تغيير تاريخية، تبدأ مرحلة تاريخية جديدة، في تاريخ الأمة الإسلامية.